موقف الأدب الإسلامي من الآداب الغربية

بقلم : محمد علي وهبة
مصر

لعله من آثار الانحسار الحضاري عن عالمنا الإسلامي منذ القرن العاشر الهجري وحتى بدايات القرن الثالث عشر الهجري، أن الكثير من مظاهر الحضارة الغربية قد تسللت إلينا لتملأ جانباً من الحضاري في الساحات الإسلامية، فكانت أوربا قد ورثت عن الحضارة الإسلامية أروع ما أبدعته عقول علماء المسلمين من علوم طبيعية، وفلسفات وآداب ذات سمات ارتقائية متفردة.

وإن كانت الحضارة الغربية قد خطت بالعلوم الطبيعية -بصفة خاصة- خطوات واسعة قادت إلى الازدهار المادي العملاق الذي يشهده العالم اليوم، وبالاعتماد -بصفة خاصة- على منهاج البحث العلمي الذ، الذي ابتكره وطوره علماء المسلمين، مما أتاح للحضارة الإسلامية فرصة القيادة المطلقة لمسيرة الحضارة الإنسانية على مدى نحو ألف عام، إلا أن الآداب بصفة خاصة لم تتواكب بالقدر الكافي مع الرقي المادي لدى أهل الغرب، فقد أقحموا فيها الكثير من شطحات الفكر، والكثير أيضًا من شطحات وانحرافات الوجدان، وذلك بسبب تبعية الآداب في جوانب كثيرة منها للأنساق البنائية الفلسفية والفكرية لدى فلاسفة وعلماء ومفكري العالم الغربي.

مقدمات فلسفية:

فقد ظهر الكثير من علماء وفلاسفة الغرب، ممن أسهموا في إنتاج أمثال تلك الأنساق البنائية الفلسفية الشاطحة، من هؤلاء مثلاً: (تشـــارلز داروين، Charles Darwin، ١٨٠٩-١٨٨٢م)، صاحب كتاب (أصل الأنواع، The Origin of Species). الذي يستعرض خلاله نظرية غريبة تتعارض مع الفكر الإنساني الفطري ومع العقائد الدينية، حيث خلاصة هذه النظرية التي تعرف باسم نظرية التطور، أن كافة الكائنات الحية، ومن بينها الإنسان قد انحدرت من سلالات حيوانية بدائية، وتطورت على مر العصور، حتى بلغت شكلها الحالي.

والغريب في الأمر أن الكثير من أنصار هذه النظرية،، يذهبون إلى أن الإنسان قد نشأ قرداً، وتطور على مدى ملايين السنين، حتى بلغ تكوينه الحالي، وهم بذلك يعتبرون أصحاب عقيدة بهيمية، إذ إنهم يؤمنون بالأصل البهيمي والطبيعة البهيمية للإنسان، الذي يظنون أنه نشأ حيوانا بكل ما تحمله كلمة حيوان من معان ودلالات. وقد بلغ إيمان وافتتان أهل الغرب بهذه النظرية المنحرفة قدراً كبيراً من الخطر، إلى الحد الذي أصبحت فيه معظم جامعات الغرب تشترط على الباحثين العاملين فيها أن لا يتقدموا بأي بحث علمي يتعارض مع نظرية داروين!!

ولا شك أن التصورات الشاطحة الباطلة في نظرية داروين تتعارض بشدة مع الكثير من آيات كتاب الله العظيم وسنة رسوله الكريم -صلى الله عليه وسلم- المطهرة، فقد صور لنا الله تعالى أصل نشأة الإنسان، بأنها كانت نشأة إنسانية من البداية، ولم تكن شيئًا آخر سابقًا على النشأة الإنسانية والتكوين الإنساني، كما كانت هذه النشأة الإنسانية حسنة قويمة، بل في أحسن تقويم، حيث ميزها الله تعالى بالعقل الراشد منذ البدء، كما في قوله تعالى: ﴿**لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم**﴾ [التين: ١٤].

وكما في قوله جل شأنه: ﴿**خلق الإنسان من صلصال كالفخار**﴾ [الرحمن: ١٤].

والآيات الكريمة المرتبطة بهذا المعنى كثيرة في كتاب الله العزيز، وكلها تقطع بأن الإنسان لم يخلق من سلالة أخرى أو من طبيعة أخرى أدنى من طبيعته الإنسانية.

كما قال الرسول الكريم [في ذلك: (خُلقت الملائكة من نور، وخُلق الجان من مارج من نار، وخُلق آدم -أبو البشر عليه السلام- مما وصف لكم). رواه الإمام أحمد ومسلم.

وقد تعرض الفكر الغربي لموجات كثيرة من شطحات الفكر المشابهة لهذا

الشطط، كان من بينها تلك الشطحة الفكرية المتمثلة في نظرية (السوبرمان)، أو الإنسان الأعلى التي أنجبها الفيلسوف الألماني (فردريك فيلهالم نيتشه، ١٨٤٤-١٩٠٠م، وخلاصة نظرية السوبرمان أن الإنسان إذا كان قد نشأ من سلالة حيوانية بدائية، ثم تطور عبر ملايين السنين حتى بلغ تكوينه الحالي -وفقا لنظرية التطور لداروين-، فذلك يعني إمكانية أن يتطور الإنسان إلى مستوى أكثر رقيًا من مستواه الحالي كإنسان، ليصير إنسانًا أعلى، ربما بعد بضع مئات أو بضع عشرات من السنين، حيث التقدم العلمي المضطرد يساعد على التسريع بحدوث هذا التطور، وعلى أساس أن العلم هو مصدر القوة اللازمة لهذا التطور.

وصلت الحضارة الغربية بالعلوم الطبيعية إلى مرحلة الازدهار المادي العملاق باعتمادها على منهج البحث العلمي الذي ورثته عن علماء المسلمين

وأخطر ما في هذه النظرية أنها كسابقتها قد أوجدت ما يمكن تسميته بأخلاق التطور (Evolutionary Ethics) وذلك في مواجهة أخلاق العبيد، التي يقصد بها أن يتحلل الإنسان من كافة أشكال العبودية، بما فيها العبودية لله -عز وجل-. وتدعو النظريتان -بناءً على ذلك- إلى الصراع الدائم بين الكائنات من أجل البقاء، وتمجيد الأقوياء، واحتقار الضعفاء، بل سحق الضعفاء لحساب بقاء الأقوياء(١).

وقد بدأ صدى هاتين النظريتين المنحرفتين يتجدد بشكل محموم في الغرب، خصوصًا بعد ظهور العديد من العلوم وأفرع العلوم الجديدة في مجال (البيولوجيا الحيوية)، وبصفة خاصة بعد ظهور علمي الهندسة الوراثية (Genetic Engineering)، والاستنساخ الحيوي (Cloning).

توابع أدبية غير مطلقة:

وقد كان لأمثال هذه النظريات الفلسفية المنحرفة في الغرب آثارها المباشرة وغير المباشرة على الأدب والمذاهب الأدبية الغربية، فظهرت سلسلة طويلة من الثورات الأدبية في الغرب، لمواجهة الواقع الوحشي الشائه للحضارة الغربية، الذي مهدت له وأوجدته المذاهب الفلسفية الوضعية غير السوية لدى أهل الغرب. صيغت هذه الثورات في شكل مذاهب أدبية، يعبر كل منها عن مرحلة من مراحل ضياع الإنسان الغربي، كالمذهب الرومانسي المعبر عن خوف الإنسان وهروبه الدائم من الواقع إلى الحلم أو إلى الخيال والوهم، والمذهب التعبيري المصور للحياة ككابوس مفزع، يطارد الإنسان أينما ذهب ويتهدده بالفناء، والمذهب الوجودي الثائر ضد تهميش الوجود الإنساني، والمذهب العدمي الداعي للبحث عن مصير للإنسان في العالم العدمي غير المرئي، مادام الوجود المحسوس للإنسان قد أصبح غير ذي جدوى، ومذهب اللامعقول المنبثق عن الفكر الفلسفي العبثي، الذي يرى في حياة الإنسان مجرد رحلة عبثية، لا هدف لها ولا معنى أو قيمة بعد أن أصبحت قيمة الآلة المادية تعلو فوق قيمة الإنسان(٢).

وتكاد أمثال هذه المذاهب الأدبية كلها تتفق في البحث عن شيء واحد مشترك، يتناوله كل مذهب أدبي من زاوية مختلفة، هذا الشيء هو البحث عن معنى للوجود الإنساني بعد أن فقد هذا الوجود معناه بغياب الإيمان بالله في الفلسفات الغربية، وبالتالي في المذاهب الأدبية المنبثقة عنها(٣).

ولكن من الظلم البيِّن أن نصم كل المذاهب الأدبية الغربية، وكل الأعمال الإبداعية الأدبية للأدباء الغربيين بأنها انعكاس لنظريات فلسفية غربية شائهة، وإن كان ذلك هو الوضع الغالب لديهم، إلا أن هناك الكثير من الأفكار الفلسفية، والكثير أيضًا من المذاهب الأدبية والأعمال الإبداعية من شعر وقصة ومسرحية لدى أهل الغرب يمكن أن يرقى إلى مستوى رشد ونقاء وشفافية الأدب الإسلامي في جوانب كثيرة منه على الأقل. فليست كل الفلسفات والآداب الغربية شائهة على الإطلاق، ومن يقول بغير ذلك يمكن أن يوصف ما يقوله بأنه يفتقر إلى روح البحث العلمي الموضوعي.

ومن الأعمال الأدبية الغربية المقبولة إسلاميًا، أو التي تلتقي مع النهج الإسلامي، مثلاً ما ساقه الأديب الشيخ محمد قطب في كتابه القيم (منهج الفن الإسلامي) عن مسرحية (الراكبون إلى البحر)، للكاتب الإيرلندي (جون ميلينجتون سينج).

وتصور هذه المسرحية أمًا فقدت من قبل خمسة من أبنائها، ذهبوا جميعًا إلى البحر ولم يعودوا، ولم يبق إلا ابنها السادس والأخير. وتصوره المسرحية ذاهبًا هو الآخر في رحلة إلى البحر، منطلقًا كالسهم إلى حتفه، لا يصده شيء، ولا يقنعه شيء بالعدول عن رأيه، فهو ينطلق كالقدر، لأن القدر هكذا أراد.

تتفق المذاهب الأدبية الغربية في البحث عن معنى للوجود الإنساني وذلك بسبب اعتمادها على الفلسفات الإلحادية التي تنكر وجود الله

وتفقد الأم ابنها السادس والأخير. وبرغم الحزن الشديد لهذه الأم الموهونة، الغارقة في الآلام، إلا أنها في هذه المرة تستريح، فقد سلمت البضاعة كلها عن آخرها، ولم يعد لديها ما تفقده، عندئذٍ تلجأ إلى الله، الذي سلمته وديعته كلها، تلجأ إليه

ديننا الإسلامي يحثنا على اتخاذ القيم الخلقية والإنسانية المشتركة بيننا وبين الذين يختلفون معنا عقديًا وسيلة من وسائل التفاهم والتعارف، فالحكمة ضالة المؤمن

تلتمس عنده العزاء والسلوان.

ويعلق الشيخ محمد قطب على هذه المسرحية بقوله:

تحمل هذه المسرحية طابعًا مسيحيًا شديد الوضوح، هي المسيحية المتصوفة اللاجئة إلى مهرب الروح، تهرب إليه من جحيم الألم في عالم الإنسان، ولكنها تلتقي مع المنهج الإسلامي في نقاط:

فهذا التسليم إلى الله تعالى، وهذا اللجوء إليه، والشعور بالموت على أنه الوديعة إليه، والتأسي والصبر، والرضاء بقدر الله، كلها جوانب تلتقي مع منهج الفن الإسلامي، وإن اختلف الطريق بعد ذلك في طريقة تناول الحياة(٤).

موقف إسلامي:

والسؤال الذي يطرح نفسه بهذه المناسبة، هو: ما موقف الأدب الإسلامي من الآداب الغربية؟

والإجابة على هذا السؤال تقتضي التعرض لحقائق ثلاث تفرض نفسها في هذا المقام:

الحقيقة الأولى: أن سلفنا الصالح حين أقاموا حضارتنا الإسلامية الزاهرة منذ القرن الثاني الهجري، فإنهم أخذوا الكثير من العلوم عن الحضارات المعاصرة لهم آنذاك، كالحضارة اليونانية والهندية وغيرهما، لكنهم لم يأخذوا التشريعات اليونانية ولا الآداب عن هذه الحضارات. والسبب أن الإسلام قد أغنانا بتشريعاته الإلهية السامية.

أما الآداب فكانت وثنية لدى هذه الحضارات، تؤمن بتعدد الآلهة، لهذا فقد أهملها السلف، ولم يترجموا منها شيئًا، واستعاضوا عنها بما استلهموه عن الوحيين الإلهيين الخالدين (الكتاب والسنة) من إبداعات إسلامية راقية، سواء في مجال الأعمال الشعرية، أو الأعمال النثرية(٥).

الحقيقة الثانية: أن الآداب الغربية وإن كان الكثير منها غير مقبول إسلاميًا، إلا أن هناك الكثير من الأعمال الأدبية الغربية تلتقي مع المنهج الإسلامي من جوانب شتى (كما سبقت الإشارة إلى ذلك)، تحتاج أمثال هذه الأعمال الأدبية إلى البحث والتنقيب عنها لدى أهل الغرب، بأسلوب علمي وموضوعي، ومن باب التعرف على الشعوب الأخرى، وما تنتجه هذه الشعوب من إبداعات في مختلف المجالات. ولعل ذلك يكون مدخلاً من مداخل حوار الحضارات، بدلاً من الصراع والصدام فيما بينها كما يدعو ويتحمس لذلك بعض مفكري الغرب المتطرفين فكريًا في الوقت الراهن.

الحقيقة الثالثة: أن الآداب، أية آداب، سواء الغربية أو الشرقية منها، هي في حقيقتها مظهر من مظاهر الحضارة بشكل عام. وحين نتحدث عن موقفنا من الآداب الغربية، بوصفها أحد أعمدة الحضارة الغربية، فيجب أن نحدد موقفنا -في الوقت ذاته- من الحضارة الغربية بشكل عام. وهناك عدة مرجعيات أصيلة يمكن أن نسترشد بها في تحديد هذا الموقف المصيري المهم:

أولاً- كتاب الله العظيم الذي يحثنا على التواصل والتعارف والتفاعل مع الشعوب الأخرى من أجل خيرنا وخير الإنسانية، كما في قوله تعالى: **﴿يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبًا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبير﴾ [الحجرات: ١٣].**

حيث التعارف يحقق التواصل والتفاعل المثمر من خلال التلاقح فيما بين معطيات الأفكار والسلوكيات الإنسانية، التي قد ينتج عنها توليد ما يفيد فكريًا أو سلوكيًا وفق منهاج الإسلام القويم.

ثانيًا- السنة النبوية المطهرة، التي تحث على الأخذ بالحكمة أنى وجدت، حيث يقول الرسول الكريم ﷺ في ذلك: **(الحكمة ضالة المؤمن، فحيث وجدها فهو أحق بها)**، أخرجه الترمذي.

ثالثًا- ما أخذ به سلفنا الصالح وهم بصدد حضارتنا الإسلامية الزاهية، وهو القبول المقيد والمشروط لمعطيات الحضارات الأخرى، فقبلوا الكثير من علوم وأفكار وفلسفات الإغريق بصفة خاصة، ولكن بعد تطهيرها مما كان عالقًا بها من عقائد وثنية، وأساطير خرافية، وبعد أن قاموا بصبغها بصبغة الإسلام الخالصة، **﴿صبغة الله ومن أحسن من الله صبغة ونحن له عابدون﴾ [البقرة: ١٣٨].**

الهوامش:

١- الهندسة الوراثية والأخلاق، ناهدة البقصمي، دولة الكويت، عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، ع (١٧٤) ذو الحجة ١٤١٣هـ، يونيو، ١٩٩٣م، بتصرف.

٢- المذاهب الأدبية، د/ نبيل راغب، س المكتبة الثقافية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ع (٣٤٣)، ١٩٧٧م، بتصرف.

٣- المذاهب الأدبية عند العرب والغربيين، عالم المعرفة، د/ شكري محمد عياد، دولة الكويت، المجلس الوطني والفنون والآداب، ع (١٧٧)، ربيع الأول ١٤١٤هـ، سبتمبر ١٩٩٣م، بتصرف.

٤- منهج الفن الإسلامي، محمد قطب، دار الشروق، بيروت، القاهرة، الطبعة السادسة، ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م.

٥- من جوانب الحضارة الإسلامية، د/ إبراهيم سليمان عيسى، قضايا إسلامية، ع (١٩) المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، ١٤١٧هـ - ١٩٩٧م، بتصرف.